رسول الإسلام في مكة

آية الله العظمى

السيد محمد الحسيني الشيرازي (قدس سره)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على رسول الإسلام محمد وآله الطاهرين.

قصص من (قادة الإسلام): الرسول الأكرم، وأهل بيته الطاهرين. نقدمها للطلاب الذين لم يدركوا مبلغ قراءة الكتب المفصلة لعلها تركز فيهم هذا القسم المهم من أصول الدين وتحبب لهم الخير والصلاح والإرشاد والله المستعان.

كربلاء المقدسة

محمد

حالة الجزيرة في الجاهلية

كانت البلاد مظلمة، ترتطم في أوحال الجهل، وكانت الشمس تشرق على بشر نضبت في نفوسها معاني الخير والصلاح، فكانت لا تعرف إلا الشر والفحشاء، وتعيث في الأرض ظلماً وعدواناً.

يكذبون في الكلام، ويشعلون نار الفتن، ويخلفون الوعد.

تسود بينهم الفوضى والهمجية، فلا نظام ولا دستور ولا قانون.

يريق بعضهم دماء بعض بدون أي مبرر.

يأكلون أموالهم بينهم بالباطل، يسرقون وينهبون ويسلبون.

تسود بينهم الطبقات المنحرفة، وتبعد الهوة بينها.

يهتكون الأعراض، ولا يحترمون النواميس.

يئدون البنات وهن أحياء، ويقولن: (نعم الصهر القبر).

يشربون الخمر، ويلعبون القمار، ويأكلون لحم الخنزير لا يحترمون الآباء والأمهات ويقطعون الأرحام،

يؤمنون بالخرافات، فقسم منهم يعبدون الأصنام، وقسم منهم يعبدون النار، وقسم منهم يعبدون الملائكة وقسم منهم يعبدون المسيح عليه السلام، وقسم منهم يعبدون النور والظلمة..

أما الحروب، فقد كانت قائمة بينهم على ساق، فالقبائل والدول تحارب بعضهم البعض على طول الدهر.

قد أصيبوا بأبشع أنواع الفقر والجهل والمرض والتشتت: فالنعرات الإقليمية، والعرقية، والتفرقات اللونية والقبلية، كانت تسعرهم بنارها، قد فشت فيهم الرذيلة بجميع أصنافها.

ولادة نبي الإسلام

وفجأة أشرقت الدنيا بنور (محمد) نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد منّ الله على البشر بأن شرّف الأرض بمقدم هذا المولود السعيد في أطهر بقاع الأرض (مكة المكرمة) حيث صارت بعد ذلك قبلة المسلمين:

في أبرك يوم وأسعده، يوم الجمعة سابع عشر (ربيع الأول) بعد الفجر.

قبل ثلاث وخمسين سنة من الهجرة، في عام الفيل في زمن الملك العادل (كسرى): (انوشروان).

من أب كريم شريف (عبد الله) بن (عبد المطلب)(بن هاشم).

وأم طاهرة تقية (آمنة) بنت (وهب).

ظهور الأحداث الكونية عند ميلاد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

وفي يوم ولادته، ظهرت أحداث عجيبة في الكون دلّت على عظمة المولود.. فقد خمدت نيران (فارس) وغاضت بحيرة (ساوة) وسقطت (شرفات) من قصر ملك الفرس، ونكّست (الأصنام):

كما زهر من جبينه المبارك نور أضاءت له بيوتات مكة.

وتنبأ الناس بأنه سيكون لهذا الوليد مستقبل عظيم باهر.

وجاءوا بالمولود إلى جده (عبد المطلب) شيخ مكة، وزعيم القرشيين، فبارك الوليد، وسرّ به سروراً عظيماً، حيث كان قد أخبر من قبل ـ بواسطة البشائر السماوية والكهّان ـ: بأن حفيده هذا سيكون نبياً رسولاً.

وسرّت (قريش) وهم قبيلة النبي، بهذا المولود الجديد، وبالأخص بيت هاشم.. حتى أن عم النبي (أبا لهب) أعتق جارية له، حيث أتت إليه ببشارة ولادة (محمد)(صلى الله عليه وآله وسلم).

مرضعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

كانت عادة الأشراف من العرب: أن ترسل بأولادها إلى البادية للارتضاع، حتى يشب الولد وفيه طهارة الجو

الطلق، وفصاحة اللغة البدوية، التي لم تشبها رطانة الحضر المختلط من صنوف مختلفة، وشجاعة القبائل التي لا تعرف جبناً بواسطة قيود المدينة، وصفاء النفس التي تشمل انطلاق الصحراء.

وهكذا ارتأى جد الرسول (عبد المطلب).

وجرياً وراء هذه العادة، كانت نساء القبائل تأتي في كل سنة إلى (مكة المكرمة) لتأخذ أبناء الأشراف وذوي المناصب والجاه.

فأمر (عبد المطلب) أن يؤتى بالمرضعات، ليختار منهن واحدة، لحفيده الميمون.

فأتت النساء، تسعى إلى (عبد المطلب) لتنال هذا الشرف الذي فيه مفخرة إرضاع هاشمي لـ (محمد) والنيل من رفد زعيم مكة.

ولم يقبل (الوليد) ثدي أية امرأة منهنّ، فكن يرجعن بالخيبة.

وكأن (الله) سبحانه لم يشأ إلا أن ترضع النبي امرأة طاهرة نقية.

حتى انتهى الدور، إلى امرأة شريفة عفيفة تسمى (حليمة السعدية)، فلما مثلت بين يدي (عبد المطلب) سألها عن اسمها، ولما أخبر باسمها، تفأل وقال: (حلم وسعد!!).

فأعطوها النبي (محمد) وإذا به يلقم ثديها ويقبل على المص ببهجة وحبور. فرح الجميع من ذلك، وأخذوا يباركون الجد والمرضعة، وهناك عادت إلى قومها (حليمة) بخير الدنيا، وسعادة الآخرة، تحمل الوليد المبارك، وشاءت الأقدار أن تدرّ على قبيلة (حليمة) الخير والبركة، بيمن هذا المولود الرضيع.

فكانت السماء تهطل عليهم بركة وسعة وفضلاً.

والوليد الرضيع، ينمو نمواً مدهشاً، على غير عادة أمثاله، ويوماً بعد يوم، تظهر في سماته آثار العز والجلال، مما تُنبئ بمستقبل نير، فكانت القبيلة تتعجب من هذا الرضيع!

وأخذ الطفل يشب، وينمو، ويقوى، ويكبر، وفي صباح كل يوم تقع عينا (حليمة) وعيون (القبيلة) على وجه وضاء مشرق.

واتفق - أيام كان (محمد) في البادية: أن جاء رجل إلى مكة، وقال لـ (عبد المطلب): إن (حليمة) امرأة عربية، وقد فقدت ابنها، واسمه (محمد).

فغضب عبد المطلب لهذا الخبر المؤلم، وحزن.

وأرسل في طلبه، فوجدوه، في واد، تحت شجرة أم غيلان.. فسرّ بذلك سروراً بالغاً.

أبو طالب يكفل الرسول

ولما حانت وفاة (عبد المطلب) كان عمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثمان سنوات، جمع أولاده وأوصاهم بالحفيد، وقال: احفظوا وصيتي فيه، فقال (أبو لهب): أنا له.. فقال (عبد المطلب): كف شرك عنه، فقال العباس: أنا له.. فقال (عبد المطلب) أنت غضبان لعلك تؤذيه.. فقال (أبو طالب): أنا له فأنشأ عبد المطلب يخاطب أبا طالب:

أوصيك يا عبد مناف بعدي بواحد بعد أبيه فرد فكفله أبو طالب بعد وفاة عبد المطلب خير كفالة وأخذ نبي الإسلام، يكمل ويرشد ـ بعد مرجعه من البادية ـ في عطف أمه الطاهرة (آمنة)، وجده الشفيق (عبد المطلب).

حتى إذا بلغ من العمر (السادسة) ذهبت به أمه (آمنة) إلى (يثرب): (المدينة) ليزور أخواله (بني النجار) وصحبته في هذه الرحلة (أم أيمن) ومكثوا هناك مدة.

وعند رجوعهم، إلى (مكة) وقع حادث أليم على النبي، فقد لبّت أمه (آمنة) نداء ربها، عند قرية تسمى (الأبواء) ففاضت عينا (محمد) بالدموع، واجتمعت عنده وحشة موت الأم إلى وحشة موت الأب.. فقد مات أبوه (عبد الله) وهو جنين في بطن أمه، (أو له من العمر أشهر عديدة).

وقد كان الحادثان الأليمان، يملآن قلب النبي حزناً وكآبة، ويفيضان من مآقيه الدموع.

وحتى ـ بعد أن بعث رسولاً ـ كان في بعض الأحيان يأتي إلى قبر أبيه، وقبر أمه، وكان يبكي بكاءً مراً.

لكن العناية الإلهية شاءت أن لا تحرم (محمداً)(صلى الله عليه وآله وسلم) من حنان الجد والعم، وزوجة العم، فقد كان (عبد المطلب) و (أبو طالب) يكفلان النبي بمنزلة الأب الرحيم، وكانت (فاطمة بنت أسد) أم (الإمام أمير المؤمنين) تعطف عليه، كأنها الأم الرؤوف.

الرسول في طفولته وشبابه

وأخذ الرسول ينمو، ويظهر نجمه، ويلمع اسمه ويشارك قومه في الأمور كلها، ما عدا الدنايا، فلم يسجد لصنم، ولم يلعب قماراً، ولم يشرب خمراً، ولم يحم حول الفجور.. أما معالي الأمور فكان (النبي) يشاركهم فيها.

فشارك في حرب (فجار) وهي حرب قامت بين (قريش) و (هوازن).

وشارك في (حلف الفضول) وهو حلف تداعت فيه (قريش) إلى نصرة المظلوم، فتعاهدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا نصروه.

مشاركة الرسول في بناء الكعبة

وشارك في (بناء الكعبة) فقد أصابها سيل فصدع جوانبها، وهدم أركانها، فأرادت قريش بناءها، فكان (محمد) يشاركهم في نقل (الحجارة) للبناء، حتى إذا اكتمل البناء، وبلغوا موضع الركن (الحجر الأسود) اختلفوا بينهم: أيّهم ينال شرف وضع (الحجر) مكانه؟ واشتد بينهم الخلاف حتى هموا أن يحاربوا.

وانتهى الأمر إلى أن رضوا باحتكام أول من يدخل عليهم من باب المسجد، ووقفوا ينتظرون أول داخل من الباب، وإذا بالطلعة المشرقة المنيرة، تطلع عليهم غرة (محمد) الحكيم، ففرحوا به فرحاً بالغاً.

فقصوا عليه قصتهم، وأخبروه بأنه الحكم في هذا الأمر.

فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (هلموا إليَّ ثوباً) فأخذ الثوب وبسطه، ووضع (الحجر) في وسطه، وقال: (لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً) وكان قصده من ذلك إرضاءهم جميعاً.. ولما وصلوا

إلى الركن رفعوا الثوب، وأخذ النبي (الحجر) ووضعه في موضعه.

وقد كان هذا القضاء من أسباب دوي السمعة الطيبة للرسول في الأوساط.

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يذهب للتجارة

وكانت عادة (قريش) أن ترحل في الشتاء إلى (اليمن) وفي الصيف إلى (الشام) للاصطياف، والتجارة كما نزلت في قوله تعالى:

(بسم الله الرحمن الرحيم لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)(١).

وفي إحدى هذه الأسفار التي كانت (قريش) تنحو نحو (الشام) أخذ (أبو طالب) الكفيل، (محمداً ص) معه إلى (الشام).

وفي أثناء الطريق، وصلوا إلى (دير) راهب، يسمى (بحيراء) فلما أبصر الراهب بالنبي عرفه، وانه هو النبي المبعوث في آخر الزمان.. فجاء بمقدار من الطعام، وأخذ يتساءل: من يتولى أمر هذا الغلام.؟ فأجاب (أبو طالب): أنا.. فقال (بحيراء) أي شيء تكون منه؟ قال أبو طالب: عمه، أخو أبيه من أبيه وأمه.. فقال بحيراء: أشهد أنه هو (يعني: أنه الرسول المبعوث) وأخذ يحلف ويقول: هو هو ورب المسيح.

ولما وصلت (قريش) إلى الشام، التقى (أبو طالب) و (نوفل) براهب يقال له: (أبو المويهب) فسأل الراهب عنهما: (هل قدم معكما غيركما؟) قالا: نعم.. شاب من بني هاشم اسمه (محمد) قال الراهب: إياه أردت.. وسألهما أن يرياه (محمداً)، ولما رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: هو هو، ثم انحنى على الرسول يقبله، ولما فارقه، قال الراهب: هذا نبي آخر الزمان سيخرج عن قريب.

وسافر الرسول مرة أخرى إلى الشام، أجيراً للسيدة (خديجة) للاتجار بمالها.

زواج الرسول من خديجة

ولما رجع (محمد) من سفر التجارة، وعمره إذ ذاك (خمسة وعشرون) سنة، رغبت (السيدة خديجة) في التزويج به.

وكانت هذه السيدة، من أجمل نساء مكة وأكثرهن ثروة، وكانت مثلاً بين النساء في الشرف والطهارة والنزاهة، وتقرب من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ كانت تلتقي بنسبها من الرسول في (قصي بن كلاب).

ولما عرف (أبو طالب) رغبة (خديجة) من الزواج بـ (محمد) ذهب في حشد لخطبتها، وقال في الخطبة:

(الحمد لله الذي جعلنا من ذرية (إبراهيم)، وزرع (إسماعيل).. ثم إن ابن أخي هذا: (محمد بن عبد الله) لا يوزن به رجل، شرفاً ونبلاً وفضلاً.. وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم (خديجة) وقد بذل لها من الصداق، كذا وكذا).

١ـ سورة قريش: الآيات ١ ـ ٤.

وجعل الصداق عدداً من الإبل ـ كما في بعض التواريخ ـ.

وتم الزواج السعيد بين رسول الإسلام والسيدة خديجة وقد كانت فرحة مسرورة بهذا الزواج، كما أن النبي سرّ بهذا الزواج أيضاً، وعاشا معاً طيلة حياتها التي دامت (ثمان وعشرين) سنة، أفضل مثال للزوجين المتلائمين السعيدين.

وقد كان لهذه السيدة العظيمة أكبر نصيب في مؤازرة الرسول بعد البعثة، وأعظم الأثر في الدفع بالإسلام (الدين الجديد) إلى الأمام.

ورزق الرسول منها من الأولاد (زينب) و (أم كلثوم) و (فاطمة) و (رقية) و (قاسم) و (الطاهر) عليهم الصلاة والسلام.

العالم قبل مبعث الرسول

كان العالم قبل مبعث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يستعد لتحول عام في جميع الكيان البشري.

وقد كان الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى وبعض الكهنة يُنبئ بمقدم مثل هذا الرسول، لما وجدوه في كتبهم من صفته وزمانه.

وكانت يهود (يثرب) إذا حدثت بينهم وبين العرب (المشركين) منازعات، يتوعدونهم بظهور النبي وانهم ينصرونه، فينتقمون من أعدائهم.

قال ابن عباس: إن اليهود كانوا يستفتحون على (الأوس) و (الخزرج) برسول الله، قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

وإلى هذا تشير الآية الكريمة:

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)(١).

وقد كان الكهان من العرب تأتيهم الشياطين من الجن، فتذكر بعض أمر الرسول، مما كانت تسترق السمع، فلما تقارب زمانه (صلى الله عليه وآله وسلم)، حيل ـ في السماء ـ بين الشياطين وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها وتسترق الأنباء، وكانت إذا أرادت أن تستمع إلى الملأ الأعلى ترمى بالشظايا والشهب.

وإلى هذا تشير الآية الكريمة ـ عن لسان الشياطين ـ (وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً وأنّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً).

١ـ سورة البقرة: الآية ٨٩.

كانت الأوضاع العالمية تنحدر من سيئ إلى أسوأ ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يكتمل ويقوى ويرقى مدارج الكمال من حسن إلى أحسن.

الرسول يتلقى الوحي

ولما كمل عمره المبارك أربعين سنة.. وكان ذات يوم في (غار حراء) وهو كهف صغير بأعلى جبل يسمى (حراء) في الشمال الشرقي من مكة، يبعد عنها نحو ثلاثة أميال إذ فتحت له أبواب السماء، ورأى أفواج (الملائكة) وطرأت عليه حالة من الدهشة والرعب، لم يسبق لها نظير.

فإذا بملك عظيم، يملأ الآفاق، يسمى (جبرئيل) عليه السلام، ينزل عليه من السماء، ويأخذ بيده، ويقول له: اقرأ!

قال (محمد) في دهشة وارتياع: ما اقرأ؟

قال (جبرئيل):

(بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق خلقَ الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم)(١).

وكان هذا الحادث الجلل، يوم في السابع والعشرين من شهر رجب، ويسمى بيوم (المبعث) حيث بعث الله الرسول إلى البشر، ليرشدهم إلى الحق، وينقذهم من الضلالة.

وقد كان نزول هذه السورة، وهي (سورة علق) بدء بعثة الرسول، حيث أوحى الله تعالى إليه بهذا الشكل، وانتخبه إله الكون ليكون سفيراً بينه وبين عباده.

ومن ذلك اليوم أضيف إلى ألقاب (محمد) الصادق الأمين، لقب (الرسول) فصار (رسول الله) و (خاتم النبيين).

إن (جبرئيل) الملك العظيم، نزل على الرسول، وأتاه بـ (الوحي) وانتخبه الله ليكون (نبياً رسولاً).

لكن هل هذا الحادث شيء طفيف؟ وهل أن هذه السفارة بين إله الكون وبين البشر كافة، أمر هين؟

إن (الرسول) ارتاع لرؤية جبرئيل، واضطرب قلبه المبارك، لمشاهدة ملكوت السماوات والأرض، ولأول مرة في حياته يرى ما لم يكن يراه من قبل.

فنزل الرسول من (غار حراء) وتوجه نحو الدار وهو يطوي هذه المسافة الطويلة (ثلاثة أميال) بين الجبال والقفار.. ويشاهد في الطريق ما يزيده دهشة، فكل شيء في الطريق، من حجر وشجر ونبات يخر له ساجداً، بمجرد عبوره عليه، ويقول ـ بلسان فصيح ـ:

(السلام عليك يا نبي الله).

ولما دخل الدار، تنوّرت الدار بشعاع وجهه، فاستغربت (السيدة خديجة) الأمر، وسألت: ما هذا النور؟ قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): هذا نور النبوة.. ثم قال لها الرسول: قولي: لا إله إلا الله، محمد رسول

١ـ سورة العلق: الآيات ١ ـ ٥.

الله.. فأجرت هذه الكلمة المباركة، على لسانها، وأسلمت لله رب العالمين.

وقد وجد الرسول في نفسه برداً، كما يجده كل من يدهش لحادث جلل، فقال: يا خديجة دثّريني، فدثّرته فنام (صلى الله عليه وآله وسلم).

وإذا بالوحي يوقظه، وينزل عليه: (بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر)(١).

ومنذ هبوط الوحي بدأت مرحلة جديدة، في حياة الرسول، وألقيت على عاتقه مهمة الرسالة والدعوة.

وصل نبأ نزول الوحي إلى الرسول، إلى (ورقة) وهو من العلماء، ويتصل بـ (خديجة) زوجة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، بنسب.

فأتى إلى (خديجة) وسألها عن صفة الوحي؟

فلما أخبرته.. قام (ورقة) وقبّل رأس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقال ـ يبشّره بهذا المنصب الإلهي العظيم ـ:

(ذاك الناموس الأكبر، الذي نزل على موسى وعيسى) ثم قال: (ابشر فإنك أنت النبي الذي بشر به موسى وعيسى، وانك نبي مرسل، ستؤمر بالجهاد). ثم أنشد بعض الأشعار.

ومن الطبيعي:

أن يفكر الرسول تفكيراً طويلاً، حول قومه كيف يهديهم إلى الحق؟ وهل أنهم مستعدون لتصديقه بأن الله واحد لا شريك له، وأنه رسول إليهم من عنده؟

وكيف يصدقونه، وهم يعبدون مئات الأصنام ويجعلونها لله شركاء؟ أم كيف يستعدون أن يخضعوا له ويطأطئوا لرسالته، وهم على ما هم عليه من الكبرياء والتعجرف؟

إن مهمة الوحي والرسالة، ليست كسائر المهام التي تقوى عليها نفس عادية، انها وطأة: ثقيلة، لا تقوى لها الجبال الرواسي، كما تشير الآية الكريمة: (إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً)(٢).

لكنه لابد من التبليغ: ولابد من مواجهة الصعاب والرسول مستعد لذلك.. ولو كلفه الأمر ما لا يطاق ولو كان في ذلك ذهاب جميع ما لديه، ولو كان بثمن حياته الغالية!!

بدء الدعوة الإسلامية

لما نزل على الرسول: (يا أيها المدثر)(٣) قام وجعل إصبعه في أذنه، وقال: (الله أكبر.. الله أكبر) فكان كل موجود يسمعه يوافقه.

ولما نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين)(٤) صعد رسول الله ذات يوم على الصفا، فقال: يا صباحاه.

١ـ سورة المدثر: الآيات ١ ـ ٣.

٢ـ سورة المزمّل: الآية ٥.

٣ـ سورة المدثر: الآية ١.

٤ـ سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

فاجتمعت إليه (قريش) فقالوا: ما لك؟ قال: أرأيتكم إن أخبرتكم: أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، ما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى..

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقام (أبو لهب): عم الرسول، وقال: تباً لك، ألهذا دعوتنا؟!(١)

وفي ذات مرة خطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، قائلاً:

(أيها الناس، إن الرائد لا يكذب أهله، ولو كنت كاذباً، لما كذبتكم، والله الذي لا إله إلا هو: إني رسول الله إليكم حقاً خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتون كما تنامون، ولتبعثون كما تستيقظون ولتحاسبون كما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها الجنة أبداً، والنار أبداً، وإنكم أول من أنذرتم)(٢).

وفي خبر أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال بعد ما جمعهم -:

(أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟).

قالوا: نعم.. أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذباً قط.

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد(٣). وأظهر رسالته.

خطب جلل، ونبأ ما أعظمه؟

إنسان، كان كأحدهم إلى يوم أمس، ثم يقوم ليقول: إني رسول الله قد أنزل عليّ الوحي، وأمرني أن أنذركم، وأن تؤمنوا بأن الله واحد، وأني رسوله إليكم. ثم ماذا؟ ثم تطيعوني في أقوالي، وتتركوا ما أنهاكم عنه، مما ألفتموه، وجرت عادتكم عليه.

وهل لهذا الرجل الداعي، أموال ضخام؟ كلا أم هل له سلطان ومنصب؟ كلا. أم هل له قوة تحميه؟ أم هل له عشيرة تعضده؟ كلا.

انتشر هذا النبأ العجيب، في أندية مكة، فأخذوا يتسامرون به، وجعلوا يتحدثون به في مجالسهم، فقد شاعت الدعوة، وظهر الأمر، وطفقت نفوس أهل مكة تتهيأ لمواجهة هذا الخبر الجديد، وتترصد الأخبار متسائلين: ما هذا الدين الجديد، الذي يدعو إليه (محمد).

فكانت نفوس قليلة استنارت بالحق، وخرجت عن التعصب، تؤمن بالرسالة، وتهتدي بهدى الإسلام..

وكانت نفوس كافرة مظلمة، لا تريد الهدى، وتسدر في غيها وعتوها، تنسب الرسول إلى ما تهويه نفسها، ويلوك به لسانها، فيقولون:

(شاعر نتربّص به ريب المنون)(٤).

(إنه لمجنون)(٥).

(كاهن)(١).

١- بحار الأنوار: ج١٨، ص١٦٤.

٢- بحار الأنوار: ج١٨، ص١٩٧.

٣- بحار الأنوار: ج٩، ص١٣٢.

٤- سورة الطور: الآية ٣٠.

٥- سورة القلم: الآية ٥١.

(إنما يعلمه بشر)(٢) إلى غير ذلك.

الإمام أمير المؤمنين (ع) أول من آمن

كان أول من آمن بالرسول، وصدقه (الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام).

وبعده (السيدة خديجة، ثم.. (أبو طالب) عم الرسول.

وفي ذات يوم، أمر الرسول (علياً) أن يدعو رجال عشيرته، وأن يهيئ لهم طعاماً.. ليبلغهم الرسول الدعوة.

فصنع (علي) الطعام، كما أمره الرسول، ودعا العشيرة، وهم أربعون رجلاً، فحضروا وأكلوا وشربوا.

ثم.. أظهر لهم الرسول الدعوة، وأنه رسول الله إليهم، ووعد مَن آزره بأنه يكون أخاه وخليفته.

فأحجم القوم عن الجواب، إلا (علي بن أبي طالب) فقام، وهو أصغرهم سناً، فقال: يا رسول الله، أنا.

فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): إنه أخي وخليفتي، فاسمعوا له وأطيعوا.

فضحك القوم، وتوجّه (أبو لهب) إلى (أبي طالب) قائلاً:

إنه يأمرك أن تطيع ابنك، وتفرقوا عن المجلس مستهزئين...

أبو لهب

وقد كان (أبو لهب) و (زوجته)، من أشد الناس إيذاءً للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكان (أبو لهب) يرمي الرسول بالحجارة، و (زوجته) تلقي في طريق الرسول الأشواك.

فأنزل الله تعالى فيهما، سورة (المسد).

(بسم الله الرحمن الرحيم تبّت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمّالة الحطب في جيدها حبل من مسد)(٣).

وقد كان الأمر ـ كما أخبر الله تعالى ـ حيث لم يؤمن (أبو لهب) و (زوجته) بالرسول حتى ماتا.

أخذ الإيمان يتسرّب إلى النفوس الطاهرة، فكانوا يأتون إلى الرسول، متسللين ويظهرون الإسلام، ويشهدون أن (لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله).

وأخذ المشركون يزدادون في إيذاء النبي والمسلمين لعلهم يرجعون..

١ـ سورة الحاقة: الآية ٤٢.

٢ـ سورة النحل: الآية ١٠٣.

٣ـ سورة المسد: الآيات ١ ـ ٥.

شكوى الكفار إلى عم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

وجاء جماعة من الكفار ذات مرة، إلى عم النبي (أبي طالب) الذي آمن به في السر، وكان يحميه في العلن، فقالوا:

(يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلّي بيننا وبينه، فنكفيكه، فإنك على مثيل ما نحن عليه، من خلافه).

فردهم أبو طالب، رداً جميلاً، وآزر الرسول وأمره بإظهار دعوته، وأنه لا غضاضة عليه، ما دام هو حي، وفكرت قريش ذات مرة أن تقابل (محمداً) وتثنيه عن عزمه بالطمع والمال.

فاجتمعوا إلى الرسول، وقالوا: (يا محمد، شتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة).

فإن طلبت مالاً، أعطيناك!

أو الشرف، سوّدناك!

أو كان بك علة، داويناك!

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (ليس شيء من ذلك، بل بعثني الله إليكم رسولاً، وأنزل كتاباً، فإن قبلتم ما جئت به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر، حتى يحكم الله بيننا)(١).

وهكذا فشلت خطط قريش، بالنسبة إلى إغراء النبي، كما فشلت من ذي قبل بالنسبة إلى الفصل بين النبي وبين عمه (أبي طالب) ورجعوا خائبين.

تعذيب الكفار للمسلمين

واتخذ الكفار خطة جديدة، لتفريق الناس من حول الرسول، فتوسلوا بتعذيب المسلمين، لكي يفتنوهم عن دينهم، لعلهم بهذه الوسيلة الدنيئة يقضون على الدعوة الإسلامية.

فـ (بلال) كان يأتي به سيده (أمية) إلى خارج مكة، إذا حميت الشمس وقت الظهيرة، ويلقيه في الرمضاء على ظهره. ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتلقى على صدره، ويقول: لا تزال كذلك حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى.. فيقول (بلال) وهو على هذه الحالة المؤلمة: (أحد.. أحد) يريد بذلك أنه لا يؤمن إلا بالله الواحد الأحد.

و (خباب) أخذه الكفار، وعذّبوه أشد العذاب فكانوا يعرونه من ثيابه، ثم يلصقون ظهره بالرمضاء، ثم بالحجارة المحماة بالنار، ويلوون رأسه ورقبته، ليكفر بالرسول، فكان لا يزداد إلا إيماناً وتسليماً وصبراً.

و (عمار) و (ياسر: أبوه) و (سمية: أمه) عذبوهم الكفار أشد العذاب، فكانوا يخرجونهم إلى الأبطح، إذا حميت الرمضاء يعذبونهم، فمر بهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات مرة، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة)، فمات (ياسر) في العذاب وطعن أبو جهل (سمية) بطعنة قبيحة،

١- بحار الأنوار: ج٩، ص١٢٠.

فماتت، وأنهكوا (عمار) عذاباً.

وقد كان الكفار، يضربون المسلمين، ويجيعونهم ويعطشونهم، حتى لم يقدروا أن يستووا جالسين من شدة الضر الذي بهم.

فلا يرجع منهم راجع، ولا يترك الإسلام منهم أحد وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تفيض عيناه بالدمع ـ أحياناً ـ حزناً عليهم، وهو يصبرهم ويعدهم النصر في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

إيذاء الكفار للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

أما إيذاء الكفار للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فشيء معلوم.

يقول بعض الرواة: رأيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في سوق (ذي المجاز) وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وأبو لهب يتبعه، ويرميه بالحجارة، وقد أدمى كعبه وعرقوبيه، وهو يقول: لا تطيعوه فإنه كذاب.

وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا مر بقوم، أشاروا إليه بالأصابع استهزاءً به.

وكانوا يلقون على رأسه الكريمة الفرث، وهو في الصلاة.

وربما ألقوا في طعامه ـ وهو مشتغل بالأكل ـ القذر.

وشج أحد الكفار رأسه بالقوس، حتى جرت الدماء على وجهه المبارك.

وكانوا يأتون بالقذر ويلطخون به جدران داره، ويلقونه في فنائه.

وربما رشقوا داره بالحجارة.

وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، يقابل ذلك بالحلم والصبر، ويدعوهم إلى الله سبحانه، وأن يحكموا عقولهم فيما جاء به.. وكان يدعوهم أن يتركوا أذاه وأذى أصحابه، وأنهم لو كانوا صادقين فليأتوا بمثل القرآن العظيم، ويتحداهم بذلك.

فطلب ـ أولاً ـ منهم أن يأتوا بمثل القرآن، وأخبر أنهم لا يتمكنون (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)(١).

ثم طلب منهم ـ ثانياً ـ أن يأتوا بعشر سور (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات)(٢).

ثم طلب منهم ـ ثالثاً ـ أن يأتوا بسورة واحدة مثل سورة القرآن: (وإن كنتم في ريبٍ مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)(٣).

لكنهم لم يتمكنوا أن يأتوا، ولا بسورة صغيرة، وأظهروا العجز والفشل، وكان منتهى ما لديهم (السب) و (الإيذاء).

١ـ سورة الإسراء: الآية ٨٨.

٢ـ سورة هود: الآية ١٣.

٣ـ سورة البقرة: الآية ٢٣.

الرسول يجد في دعوته

وقد كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، لا يثنيه عن دعوته شيء ليلاً ونهاراً، ففي الليالي يتلو القرآن بصوت عال، يسمعه الجيران والمارة، وفي النهار يدعوهم في المسجد الحرام، ويصلي أمامهم، ويخرج إلى الأسواق والشوارع، فيناديهم ويدعوهم في الندوات والمجتمعات، وبين كل فترة يخرج إلى القبائل والعشائر فيدعوهم إلى الإيمان.. وفي مواسم الحج، كان يدعو القبائل الوافدة إلى الحج في (منى) ويعرض نفسه عليهم.

وفي غضون تلك المدة راسل (صلى الله عليه وآله وسلم)(النجاشي) ملك الحبشة، وأرسل إليه وفداً برئاسة ابن عمه (جعفر ابن أبي طالب).

كما أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) سافر ذات مرة إلى (الطائف) لعله يجد هناك أذناً صاغية.

كما أن (قريش) قاطعت الرسول وذويه، مدة ثلاث سنوات، وألجأوهم إلى (شعب أبي طالب) يلاقون مصاعب الجوع والعرى والخوف.

لكن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، صمد أمام ذلك كله، ولم يثنه عن عزمه شيء.

إيمان أبي طالب عليه السلام

وكان يؤازره في دعوته (أبو طالب) وولده (علي) عليهما السلام، ويمنعانه عن كيد الأعداء ويقيانه بأنفسهما، وفي ذلك يقول أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم***حتى أوسد في التراب دفينا

ولقد علمت بأن دين محمد***من خير أديان البرية دينا

كما أن السيدة خديجة (عليها الصلاة والسلام) كانت تمد الرسول بالتشجيع وبالمال فقد بذلت ثروتها الطائلة، التي كانت تعد بالملايين، للدعوة الإسلامية وجعلتها تحت اختيار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، يبذل منها للمستضعفين من المسلمين الذين لا مال لهم.

وجرت الأمور على نهج واحد، حتى مات (أبو طالب) وماتت خديجة (عليهما السلام).

وبموت (خديجة وأبي طالب) انهدّ ركنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهنا اغتنم الكفار الفرصة ليقضوا على الإسلام، بالقضاء على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي مات ناصره الوحيد (أبو طالب) وشريكة حياته الوفية المشجعة (خديجة).

تآمر الكفار ضد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

فتآمروا بينهم لوضع خطة جدية للخلاص من الرسول وأخذوا يقلبون وجه الرأي فيما يصنعون: أيزجونه في غرفة مثقلاً بالحديد ويوصدون الباب عليه؟ لكن أصحابه يخلصونه قطعاً.

أم يخرجونه من البلاد، وينفونه من الأرض؟ لكن بيانه وحلاوة لسانه يجعلان له أنصاراً في كل مكان.

أم يقتلونه؟ لكن كيف السبيل إلى ذلك، وبنو عبد مناف يحوطونه من كل جانب؟

وأخيراً أشار عليهم بعض الحاضرين في (الندوة) بأن يقتلوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بطريقة لا يتمكن أهله وعشيرته من القصاص، بأن يختاروا من كل قبيلة من القبائل فتىً شجاعاً، فيذهبون إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جميعاً، ويضربونه بسيوفهم ضربة رجل واحد، حتى يتبدد دمه الطاهر بين القبائل، ويضطر أهله من أخذ الدية.

هجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

وهكذا استقر رأي أهل الندوة بالإجماع، واختاروا الفتيان المستعدين لتنفيذ هذه الخطة، وفيهم (أبو لهب) عمّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، العدوّ اللدود.

ولم يمض زمان، إلا و (المتآمرون) يكتنفون بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من كل جانب ومكان وحيث لم تجر عادتهم على أن يهاجموا إنساناً في عقر داره، فقد قرّروا الانتظار بالرسول حتى يخرج، لينفذوا القتل فيه.

وقد أوحى الله سبحانه إلى الرسول بخطتهم هذه، وأذن له في الهجرة إلى (يثرب): (المدينة المنورة).

فأبات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) في فراشه، وخرج، تلك الليلة، مهاجراً إلى (المدينة) وقد انسلخ من عمر الدعوة الإسلامية، ثلاث عشرة سنة.